

«اسم الورد» رائعة إيكو التي لا تزال تدهش قراءها

العرب حاضرون بغياهم في رواية المعرفة المسمومة



اسم الورد في إنتاج غنائي على المسرح الألماني

ويذكر أن ناشر الرواية طلب من إيكو حذف 100 صفحة الأولى كاملة بسبب إسهابها الشديد، لكنه رفض معللاً ذلك عن وضعية الكنيسة، وهل من الصحيح أن تبلغ أملاكها كاملاً الملوك والإباطرة؟ وهل يحق لرجال الدين اكتناز الأموال وصرفها ببذخ؟ أم أن على الكنيسة أن تكون فقيرة كما بدأت؟

وهذا ما يجعلني سعيداً بما أنجزته. والحقيقة أن المناظرة بين الرهبان كما تبدو في الرواية، كان أساسها الحديث عن وضعية الكنيسة، وهل من الصحيح أن تبلغ أملاكها كاملاً الملوك والإباطرة؟ وهل يحق لرجال الدين اكتناز الأموال وصرفها ببذخ؟ أم أن على الكنيسة أن تكون فقيرة كما بدأت؟

المكتبة اللغز

وهنا يقول صاحب «اسم الورد» مستدركا «ولكن القضية ليست إن كان المسيح فقيراً ولكن إن كان يجب أن تكون الكنيسة فقيرة». وتأخذ المكتبة في الرواية حيزاً كبيراً بل ورئيسياً في جملة الأحداث الغامضة والمتعاقبة، كيف لا وبطل الرواية كتاب مسموم في عديده الدلالي والمادي، وللاتقاء منه كان لزوماً على الراهب أن يمسكه بقفازات.

وهنا يقول صاحب «اسم الورد» مستدركا «ولكن القضية ليست إن كان المسيح فقيراً ولكن إن كان يجب أن تكون الكنيسة فقيرة». وتأخذ المكتبة في الرواية حيزاً كبيراً بل ورئيسياً في جملة الأحداث الغامضة والمتعاقبة، كيف لا وبطل الرواية كتاب مسموم في عديده الدلالي والمادي، وللاتقاء منه كان لزوماً على الراهب أن يمسكه بقفازات.

المكتبة في «اسم الورد» متاهة تذكر بانسداد الفراعنة وقصة المهندس وإمبراطور آشور في الرواية البابلية، ذلك أنها صممت بعناية واحتراف شديد، لا يدخلها ويخرج منها إلا من يعرفها جيداً، يتولاه أمين يحضر الكتب منها بنفسه وبعد موافقة كبير الرهبان، وهي مغلقة في وجه الزوار والعباد في الدير على حد سواء.

وتحمل هذه المكتبة اللغز في داخلها ما لم يود كبير الرهبان أن يكتشفه غيره أو يعرفه ليكون مصير كل من ينال «المعرفة» الموت ودفن معرفته معه، تخبيء المكتبة الحقيقة وتحملها في ذاتها لأن بطل الرواية الفعلي هو كتاب.. وهنا يبدع السيميولوجي إيكو في نحت شخصية من نوع فريد وخاص، وكذلك القول إن المعرفة قاتلة.. ألا يشبه الأمر قصة ذلك الملك الذي وُثمت على رأسه رسالة، وكان لزوماً على من يتلقاها أن يقطع رأس حاملها بعد قراءتها، وذلك في قصة أسرة تنضح بها «الف ليلة وليلة».

وفي استعراض تفصيلي من إيكو، لإطلاعه على تراث الشرق الساحر، يقول على لسان شخصية الراهب الفرنسيكاني «أعرف أن ديركم يعد نور المعرفة الوحيد الذي تقدر المسيحية أن تضاهي به مكتبات بغداد 36 و10 آلاف مخطوطة التي يملكها الوزير ابن علقمة، وكتبكم المقدسة تعادل 2400 مخطوطة تنبأها بها القاهرة وحقيقة خزانكم هي البرهان الساطع ضد الكافرين».

ويسوق الراهب ويليام ملاحظته في الرواية مشيراً إلى وجود قرآن بالمكتبة «من الزخرفة يبدو أنه قرآن، ولكن للأسف لا أعرف العربية». هي رواية ليست اعتيادية في شيء، تشد القارئ في ما يزيد عن 500 صفحة بقليل، وبحسب جميع الطبقات التي تزيد عن 80 لغة.

هناك عدة إشارات وعلامات يستنير بها النقاد والدارسون، منها أن أحد أبيات الشعر في القرن الثاني عشر يقول «الأشياء الصغيرة هي التي تنجح، كانت الورقة اسماً ونحن لا نملك إلا الأسماء»، فالاسم هو ما يستمر بعد انتهاء الأشياء وانفادها، البعض يذهب إلى أن الوردية هي المكتبة، فلغز الوردية عادة تشبه المناهة، وكذلك المكتبة في الدير، فما يميزها أنها متاهة وتحتضن كمّاً هائلاً من الإغزاف بما فيها اللغة العربية التي كانت شرطاً أساسياً ليزم جميع النساخين بإتقانها في مكتبة الدير.

والبعض يذهب في تفسير لغز التسمية في الرواية للأسطورة القديمة التي تحكي عن يوم وحيد من أيام العام يُفتح فيه الباب بين عالمي الأحياء والأموات، يذهب الأحياء ليلتقوا بمحييهم وأهلهم ويعودون شريطة ألا يأخذ أحد منهم أي شيء من عالم الأموات، وفي إحدى المرات، ويتصرف الهوج، أخذ كائن بشري وردة معه، فأغلق الباب للأبد ولم يُفتح ثانية، وذلك على شكل لعنة أو عقوبة إلهية تشبه سفر النزول.

ويخلص الراهب ويليام، المحقق في جرائم القتل، إلى مجموعة تأملات جاءت على شكل إشراقات يقولها لمساعدته الراوي كقوله «إن حياة العامة لا يضيئها نور المعرفة، ولا يقودها إدراك الفارق الذي يجعل منا نحن عقلاء ويرهقها هاجس المرض والفقر الذي يجيد التعبير عن طريق الجهل، غالباً ما يكون الانتعاش بالنسبة إلى الكثير منهم وسيلة فقط مثل غيرها للتعبير عن اليأس».

رواية «اسم الورد» تبدو كما لو أنها واحد من تلك الأناجيل المسمومة والمراققة لسيرة المسيح وأقواله، كما أنها تطرح الموضوع الطيقي على المحك وتبحث في مسألة الفقر والغنى فمع تنوع سير الأحداث وجرائم القتل المتسلسلة يبدو الأمر وكأنه نبوءة تتحقق، وكل ما يحدث عبارة عن آيات، من سفر يوحنا، متتالية في العهد القديم تثبت نفسها بنفسها مع اكتشاف جثة كل راهب ميت، الدير في وصف الراوي ليس أكثر الأماكن إيماناً، يضح المكان بالفواحش والردائل أكثر مما يملأه الإيمان، الدير وإن كان يبدو صامتاً هادئاً إلا أن للظنرات المتربفة ضجيجاً عالياً لا ينافسه إلا صخب الهمس والهمهمة في الأزقة تتسائل عما سيحدث تالياً، وعمن؟ ومتى؟ ولماذا؟ وعن دوافعه وراء كتابة روايته يقول إيكو «كانت لسدي الرغبة في تسميم راهب»، وأضاف معلقاً على جملة تفاصيل تربط بحجيات كتابته الرواية «أبدى الناشر رغبته في رواية بوليسية، لكن الرواية البوليسية رواية تعتمد على تحقيقات بينما روايتي تعتمد على دلالات

النبوءة التي تتحقق وتتكشف فصولها شيئاً فشيئاً، ولدة سبعة أيام بنهاراتها ولياليها، لكن الحقيقة شيء آخر يتعلق بالطبيعة البشرية القادرة على صناعة الإغزاف بمهارة تفوق الشياطين. وقد يبدو الأمر كذلك في ظل متابعة وقائع وأحداث تفضي إلى حقائق تتضح معرّفاً، لكن الأمر معقد إلى درجة استدعاء الأسطورة والتعامل معها على أنها حقيقة تتضمن أسراراً مثل جسم الورد الذي تخفي كل ورقة منها ورقة تأتي بعدها في متاهة لا تنتهي. وعلى ذكر الورد، فإن لا وجود لوردة في «اسم الورد» ولا من يجزون، وإنما هي إشارة خفية إلى ذلك السر الذي يقع تهريبه من عالم مغلق على نفسه مثل ورقات وردة بين صفحات كتاب.

لا تملك إلا الأسماء

يقول إيكو، موضحاً، وحين شرع في كتابة تلك الرواية التي تبدو بوليسية الطابع، وكان يتحتم عليه اختيار اسم لها «بداية كنت سأطلق عليها دير الجريمة، لكن وجدته عنواناً مستهلكاً ومباشراً ففكرت أن أجعل عنوانها محايداً يحمل عدة دلالات».



العرب كان لهم حضورهم في الرواية عبر أسفار تتحدث عنهم في مكتبة الدير المغلقة على نفسها فهم سادة المعرفة آنذاك

محاكم تفتيش وصراعات شرسة حول السلطة بين الكنيسة وخصوصها السياسيين، فالطوائف المسيحية كانت في حالة اقتتال للوصول لمقعد البابا، والبابا يحارب من أجل استمرار سيطرته على الإقطاعيات التي يحكمها بشكل مباشر سواء أراض أو مدن، والصراعات بين أمراء المقاطعات الإيطالية أو بينهم وبين أمراء البلاد الأخرى وملوكها كالمنايا وفرنسا وإيطاليا. العرب بدورهم كان لهم حضورهم في الرواية عبر أسفار تتحدث عنهم في مكتبة الدير المغلقة على نفسها، وهم سادة المعرفة آنذاك بحسب وصف الراوي الذي كان مفتوناً بكتابات ابن سينا وابن الهيثم وابن مقله، ومطرباً في الحديث عن حضارة بغداد والقاهرة، ولكن كل ذلك كان يلفه الغموض حين يتطرق إلى التكلم عن مكتبة الدير الذي يموت في كل مرة واحد من رهبانه وفي ظروف غامضة.

تبدأ الرواية بوصول الراهب ويليام باسكريف وتلميذه أنزو (راوي أحداث الرواية) لدير على الأطراف الشمالية لإيطاليا، فقد حدثت للتو جريمة قتل غامضة يتوقف لديها الجميع، ويعلم بأمرها ويليام ويحاول فك لغزها، الراهب ويليام والضيف على الدير في تلك الأحداث رجل حاد الذكاء، سريع البديهة، ومحقق سابق بمحاكم التفتيش، اضطرت للتحلي عن منصبه بعدما رأى كيف أن المحكمة توجه اتهامات بالهرطقة طالته هو نفسه.

تظهر الأحداث على شكل حبكة بوليسية شديدة التعقيد والإثارة، ففي كل مرة يُقتل ناسك في ذلك الدير المليء بالألغاز والأحاجي، لكن هذا ليس إلا ذريعة لعرض فكر فلسفي موعظ في البحث والتنبيه لأدق القضايا الوجودية الممتدة منذ عصر الإغريق الذي احتد فيه النقاش حول علاقة المثقف بالسلطة من خلال نموذجي أرسطو الحريص على النظام الاجتماعي والسياسي من جهة، وديوجين الذي يزدري السلطة، من جهة أخرى. ويظهر هذا السجال في رواية «اسم الورد» عبر قول الراهب ويليام المحقق في الأحداث لتابعه، راوي تلك الأحداث «أين حكمتي؟ لقد تصرفت كما يتصرف رجل عنيد متبعاً شبح النظام، بينما كان ينبغي أن أعرف أنه لا يوجد نظام»، وذلك في عبارة تختزل الكثير من الأمور التي كانت في غير محلها والأحداث غير المنطقية في فك اللغز المعقد.

ما يظنه الجميع داخل الدير الذي تهزه في كل مرة جريمة قتل مرعبة هو أن روحاً شريرة تسكن جدرانها وتنفذ جريمتها في شيء يشبه

هي رواية ليست اعتيادية في شيء، حتى يختار الناس في تصنيفها بين البوليسي والتاريخي والفلسفي، لكنها تبقى بلا شك واحدة من الألغاز الروائية، ويبدأ سحرها من العنوان لينتهي إلى آخر جملة فيها «كل الأشياء تندثر ولا يبقى منها إلا الأسماء».

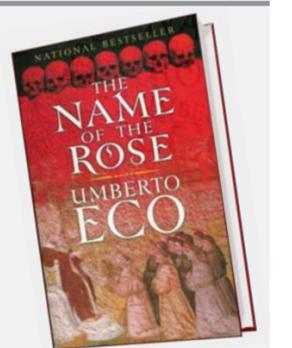


المفكر وعالم الدلالات الإيطالي أمبرتو إيكو كتب في خطاب وجهه إلى حفيده قبل وفاته: حفيدي العزيز، احفظ عن ظهر قلب قصائد الشعر، وقائع التاريخ كتاريخ الإمبراطورية الرومانية.. وحتى أسماء الشخصيات الثانوية في رائع الأدب كرواية الكسندر دوما «الفرسان الثلاثة»، لأن الإنترنت لا يمكن أن يحل محل المعرفة، كما أن أجهزة الكمبيوتر لا يمكن أن تحل محل آدمغتنا.

«كل الأشياء تندثر ولا يبقى منها إلا الأسماء» عبارة قالها المفكر الإيطالي إيكو على لسان شخصية الراهب ويليام في روايته الشهيرة «اسم الورد» التي صدرت عام 1980، ولا تزال تشغل القراء والنقاد والدارسين، وكذلك عشاق السينما الذين استمتعوا بها عام 1986 كفيلم سينمائي شديد الإثارة والإدهاش من بطولة شون كونري وكريستين سلانر، وإخراج الفرنسي جان جاك أناود.

سردية متدفقة

أن يضطر كاتب لتأليف كتاب يتحدث عن كتابه السابق، أمر ينبغى التوقف عنده والانتباه إليه.. هذا ما فعله إيكو بعد ثلاث سنوات من صدور روايته في كتابه المعنون «تأملات في اسم الورد» فما سر هذه الرواية المألوفة إلى حد الإرباك لهول ما تحتويه من طلاس م يصعب حلها؛ ومن يكون صاحبها الذي اقترن اسمه باسم الورد فكانه لم يكتب غيرها، وكان روايته ضرب من «الف ليلة وليلة» التي لا شك أنه اطلع عليها وأنهر بالسردية المتدفقة فيها، حتى أنهم بالاقتراب منها، خصوصاً في مغامرة رأس الملوك جابر» التي أعدها للمسرح الكاتب السوري الراحل سعدالله ونوس.



الرواية تبدو كما لو أنها واحد من تلك الأناجيل المفسرة والمراققة لسيرة المسيح وأقواله وتبحث في مسألة الفقر والغنى

أمبرتو إيكو، وللقلة القليلة التي لا تزال تجعله، هو أستاذ جامعي وفيلسوف إيطالي من مواليد عام 1932 وحاصل على الدكتوراه في الفلسفة عام 1954، ناقد أدبي وروائي وباحث في تاريخ العصور الوسطى وأستاذ في علم السيميولوجيا وهو علم يبحث في الدلالات والرموز والتأويل وتفسير الواقع الذهني والمادي والمعنوي لفهم الدلالات.

توفي إيكو عام 2016 بعد مسيرة حياتية وإبداعية تليق بالإيطالي المتزوج من ألمانية والمستغل بالإذاعة الفرنسية، والمتخصص في فلسفة توما الأكويني والعصور الوسطى، علاوة على أنه كان صديقاً لأشهر الفنانين والرسميين. تدور الأحداث في أحد أديرة الشمال الإيطالي عام 1327 أي في العصور الوسطى، وما تعنيه هذه الحقبة من



وفاء هلال
الرواية ليست من الروايات التي تقدم كل شيء بسهولة

عماد قيدة
عبقريّة إيكو تكمن في قدرته على تناول احتمالات لانهائية

ويقول الكاتب التونسي عماد قيدة عن صاحب «اسم الورد» «تكمن عبقرية إيكو وخطورته في قدرته على تناول أحد هذه الاحتمالات اللانهائية والعمل والبناء عليها بصبر وصناعة كبيرين فنراه يائس أن يتركها إلا وقد صارت أكثر واقعية وكثافة وقابلية للتسويق والإقناع بصحة حدوثها».